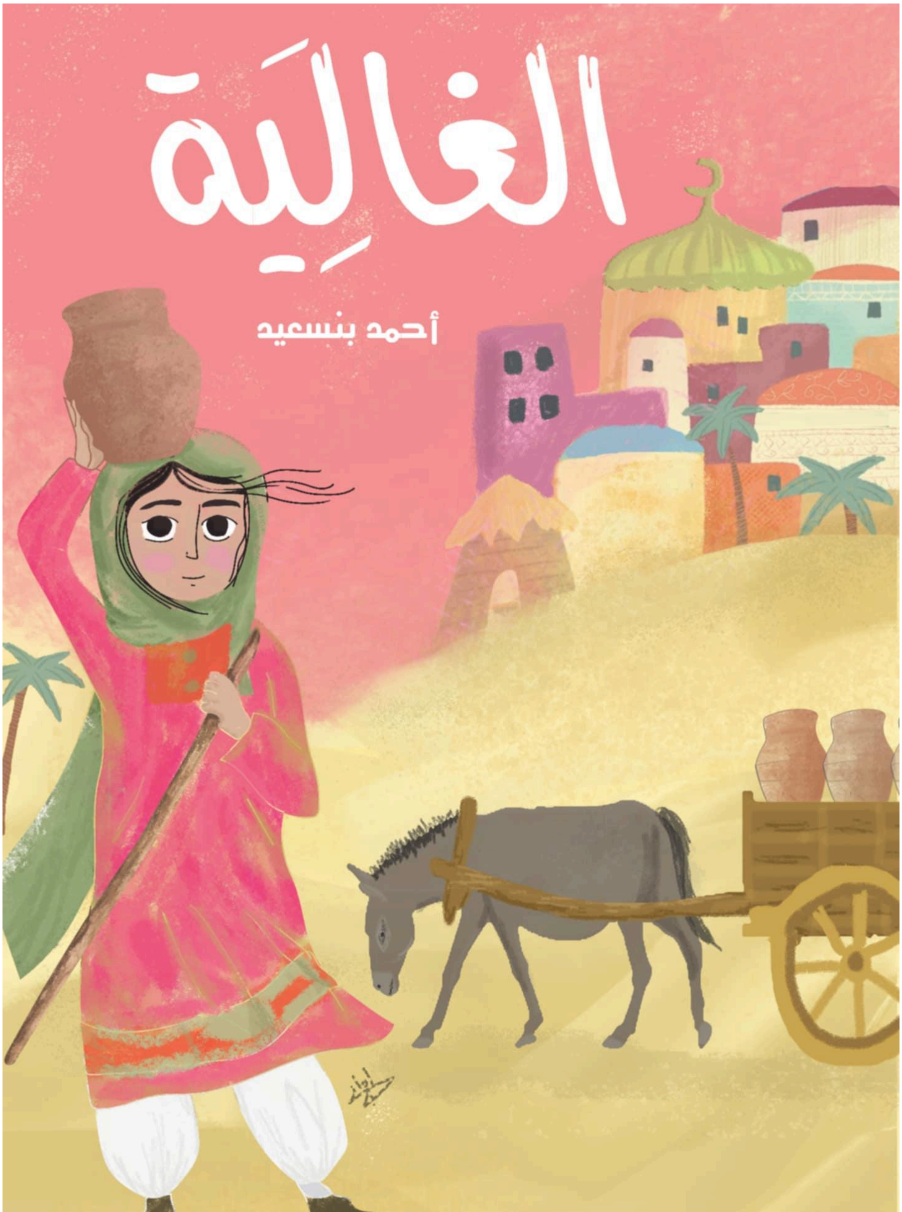
الغالِيَة

أحمد بنسعيد



أحمد بنسعيد

الْغالِيَةُ

<u>بداية من 8 سنوات</u>

نوع الكتاب: حكاية للأطفال.

الـعـمـر: بداية من 8 سنوات.

المـؤلـف: أحمد بنسعيد.

رسم الغـلاف: أماني جمال كرمدي.

صمم الكتاب: رضوان حموشي.

سنة الـنشر: 10 فبراير 2025م.

إصـــدار: المركز الرقمي لأدب الطفل.

ترتيب الإصدار: 2-2025م

إهــداء

تبعا للعادة الحميدة احتفالا بيوم إهداء كتاب الطفل الكائن في: 10 فبراير من كل عام؛

يطيب لي إهداء حكاية (الغالية) للأطفال وللمؤسسات المشتغلة بحقل الطفولة في العالم كله.

راجيا من الرحمن الرحيم الأجر والثواب.

والحمد لله رب العالمين.

أحمد بنسعيد

وجدة - المغرب

10-02-2025

قَرْيَةٌ في الصَّحْراءِ

- الْغالْيَة، الْغالْيَة... قومي...
- ما أَلَذَّ الْفِراشَ في بَرْدِ الصَّباحِ يا أُمّي!

قامَتِ الْغالْيَةُ مِنْ دِفْءِ غِطائِها. كانَتْ أُمُّها مَسْعودَةُ قَدْ صَفَّفَتْ بَراميلَ بَهِتَ لَوْنُها بِلَفَحِ الشَّمْسِ، عَلى الْعَرَبَةِ الَّتي يَجُرُّها حِمارانِ.

- أَرَّا...

هَتَفَتِ الْغالْيَةُ وَهِيَ تَقْضِمُ بَقِيَّةَ الْخُبْزِ بِسَمْنِ الْماعِزِ، فَانْطَلَقَ الْحِمارانِ يَخْتَرِقانِ الْأُفُقَ الْمُمْتَدَّ.

هَيَّجَتْ هَزّاتُ ارْتِطامِ عَجَلَتَيِ الْعَرَبَةِ بِصُخورِ الْأَرْضِ، أَوْجاعَ ذاكِرَتِها فَعادَ إِلَيْها طَيْفُ صُراخِ أُسْتاذِها مِنْ جَديدٍ:

- لِماذا لَمْ تُنْجِزي واجِبَكِ؟...

سَتُضَيِّعينَ مُسْتَقْبَلَكِ بِتَهاوُنِكِ...

زَميلاتُكِ يَأْتينَ صَباحَ مَساءَ، وَأَنْتِ تَأْتينَ وَقْتَما تَشائينَ؟؟...

"آح... يا أُسْتاذي لَوْ تَعْلَمُ"...

لا يَزالُ الطَّريقُ الرَّمْلِيُّ الَّذي الْتَهَمَ كُلَّ الْأَلْوانِ الْأُخْرى، مُمْتَدًّا لا يَنْتَهي... لا تَكْسِرُهُ سِوى مَشاهِدُ سِدْرٍ تَتَلاعَبُ بِها الرِّياحُ، وَسَحالٍ تَبْدو مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ...

تَخافُ الْغالْيَةُ الْأَفاعِيَ وَالْعَقارِبَ السّامَّةَ، أَعْدَى أَعْداءِ الْأَهالي في هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ الصَّحْراوِيَّةِ، الَّتي يُشَكِّلُ فيها الْماءُ أَعَزَّ شَيْءٍ!

يَبْتَعِدُ مَنْزِلُ الْفَتاةِ عَنْ مَكانِ السَّقْيِ بِحَوالَيْ ساعَتَيْنِ مَشْيًا عَلى الْعَرَبَةِ، هِيَ الْبِنْتُ الْكُبْرى في الْعائِلَةِ... بَعْضَ الْمَرّاتِ النّادِرَةِ؛ وَبِإِلْحاحِها الشَّديدِ عَلى أُمِّها، تَنْجَحُ في اصْطِحابِ غَيْثٍ أَخاها الْأَصْغَرَ يُؤْنِسُها في وَحْشَةِ الطَّريقِ...

ما هَذا الصَّوْتُ؟

وَحينَ اقْتَرَبَتِ الْغالْيَةُ في طَريقِها الطَّويلِ مِنْ صَخْرَةٍ عَظيمةٍ نَحَتَتْها الرِّياحُ شَكْلَ عَروسٍ عَلى هَوْدَجِها؛ سَمِعَتْ صَوْتًا كَفَحيحِ ثُعْبانٍ عَظيمٍ في الْأَنْحاءِ:

- مَنْ هُناكَ؟...

اِزْدادَ نَبْضُ قَلْبِها... فَطَقْطَقَتْ بِالسَّوْطِ في الْهَواءِ طَقْطَقَةً جَعَلَتِ الْحِمارَيْنِ يَطيرانِ مُسْرِعَيْنِ... لَمْ تَلْتَفِتْ وَراءَها مِنَ الرُّعْبِ...

- مَتى أَتَخَلَّصُ مِنْ طَريقِ النَّحْسِ هَذِهِ؟؟...

"أوف!"... أَخيرًا وَصَلَتْ لِمَكانِ السَّقْيِ.

لِحُسْنِ الْحَظِّ أَنَّ الْمَكانَ شِبْهَ خالٍ مِنَ الْأَطْفالِ السّاقِينَ. الْجَميعُ في الْمَدْرَسَةِ الْآنَ، إِلّا طِفْلًا واحِدًا يَسْبِقُها. عَلى الْغالْيَةِ أَنْ تَنْتَظِرَهُ حَتّى يَمْلَأَ بَراميلَهُ.

صُنْبورٌ واحِدٌ لا غَيْرُ؛ يَسْقي مِنْهُ الْجَميعُ مَعَ ضَرورَةِ احْتِرامِ الدَّوْرِ، وَإِلّا اشْتَعَلَتْ بَيْنَ الْعائِلاتِ خُصوماتٌ تُنَكِّدُ الْوَلائِمَ وَالْأَعْيادَ...

اِنْطَلَقَتْ تَمْلَأُ بَراميلَها، اِحْتاجَتْ نِصْفَ ساعَةٍ لِتُتِمَّ الْعَمَلِيَّةَ. عَلَيْها الْآنَ الْعَوْدَةَ بِالْعَرَبَةِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ، لِتَقْطِفَ مِنْ وَجْهِ أُمِّها ابْتِسامَةً تُكْرِمُها بِها كُلَّما عادَتْ مِنَ السَّقْيِ... هُوَ أَجْرُها الَّذي تَحْرِصُ عَلَيْهِ الْغالْيَةُ تَمامَ الْحِرْصِ!

في طَريقِ الْعَوْدَةِ إِلى مَنْزِلِها؛ تَكونُ الْغالْيَةُ أَكْثَرَ خِفَّةً وَسَعادَةً! حَيْثُ تَشْعُرُ أَنَّها أَنْجَزَتِ الْمُهِمَّةَ الشّاقَّةَ بِنَجاحٍ!

مَنِ الرَّجُلُ؟

وَلَكِنَّها حينَ وَصَلَتْ لِنَفْسِ الْمَكانِ الَّذي سَمِعَتْ فيهِ ذَلِكَ الصَّوْتَ الْغَريبَ في طَريقِ الذَّهابِ... لَمَحَتْ هَذِهِ الْمَرَّةَ جُثَّةَ رَجُلٍ هامِدَةً مُمَدَّدَةً...

- يا إِلَهي! مَنْ يَكونُ؟...

عادَ قَلْبُ الْغالْيَةِ لِلتَّطْبيلِ...

- أَرّا...

صَرَخَتِ الْغالْيَةُ لِلْحِمارَيْنِ، وَلَكِنَّهُما لِطولِ الطَّريقِ وَوَهَجِ الشَّمْسِ وَثِقْلِ الْحُمولَةِ، اسْتَمَرّا في السَّيْرِ مُثْقَلَيْنِ مُتْعَبَيْنِ... وَاسْتَمَرَّتْ هِيَ تَرْتَجِفُ في صَمْتٍ وَتَتَنَفَّسُ بِصُعوبَةٍ، وَتَسْتَرِقُ النَّظَرَ لِلْجُثَّةِ الْمُمَدَّدَةِ

هُناكَ بِلِباسِها الْأَسْوَدِ الْبَرّاقِ، حَتّى غابَتْ عَنْ بَصَرِها...

وَحينَ سَكَنَتْ أَنْفاسُها، هَجَمَتْ عَلَيْها الْهَواجِسُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ:

"وَماذا لَوْ أَنَّ الرَّجُلَ حَيٌّ يَحْتاجُ مُساعَدَتي؟...

هَلْ أَسْتَمِرُّ في طَريقي كَأَنَّ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ؟...

لا، لا... رُبَّما كانَ سارِقًا يُتْقِنُ التَّمْثيلَ؛ فَإِذا نَزَلْتُ أَمْسَكَ بي، عَلَيَّ أَنْ أَعودَ لِلدّارِ بِسُرْعَةٍ"...

اِسْتَحْضَرَتِ الْغالْيَةُ تَحْذيراتِ أُمِّها مِنْ خَطَرِ الطَّريقِ، فَواصَلَتْ وِجْهَتَها...

وَلَكِنَّها أَوْقَفَتْ عَرَبَتَها فَجْأَةً... تُرَى ما الَّذي حَدَثَ؟؟...

لَمَحَتِ الْغالْيَةُ صَخْرَةَ (الْعَروسِ)؛ فَتَذَكَّرَتْ ذَلِكَ الصَّوْتَ في نَفْسِ هَذا الْمَكانِ عِنْدَ ذَهابِها لِلسَّقْيِ.

"يا لَلْهَوْلِ! هَلْ كانَ الرَّجُلُ يَطْلُبُ النَّجْدَةَ عِنْدَ ذَهابي، وَخَذَلْتُهُ؟

رُبَّما لا يَزالُ حَيًّا فَأُسْعِفُهُ...

لا بُدَّ –إِذَنْ- مِنَ التَّوَجُّهِ نَحْوَهُ مَهْمَا يَحْدُثُ!"

اِقْتَرَبَتِ الْغالْيَةُ مِنْهُ بِحَذَرٍ، وَخَزَتْهُ بِنَعْلِها الْبالي الْمُغْبَرِّ... اِسْتَمَرَّ مُكِبًّا عَلى وَجْهِهِ في سُكونٍ.

بِرِفْقٍ مُمْتَزِجٍ بِالرُّعْبِ؛ أَدارَتْ وَجْهَهُ قَليلًا لِتَرى الْخُدوشَ الْمُنْتَشِرَةَ عَلى وَجْنَتَيْهِ الْمُلْتَهِبَتَيْنِ... أَثَرُ الْعَطَشِ الشَّديدِ أَحْدَثَ شُقوقًا بَيْضاءَ بِشَفَتَيْهِ...

اِقْتَرَبَتْ بِأُذُنَيْها، سَمِعَتْ نَفَسًا مُتَهالِكًا... طارَتِ الْغالْيَةُ نَحْوَ الْعَرَبَةِ لِتَأْتيهِ بِالْماءِ...

- اِشْرَبْ...

قَطَراتُ الرَّحْمَةِ

سالَ الْماءُ عَلى شَفَتَيِ الرَّجُلِ، وَعَلى خَدِّهِ... قَطَراتُ رَحْمَةٍ بَلَّلَتْ ريقَهُ مُتَسَرِّبَةً لِبُلْعومِهِ، سَحَبَتْهُ مِنْ مَتاهَةِ الْفَناءِ... فَحَرَّكَ لِسانَهُ، وَشَهِقَ شَهْقَةَ الْبَقاءِ:

- هوع...

سَأَلَتْهُ الْغالْيَةُ الَّتي شَعَرَتْ أَنَّها أَحْسَنَتْ صُنْعًا بِعَوْدَتِها:

- هَلْ تَسْتَطيعُ النُّهوضَ؟؟...

أَجابَها أَنينُ الرَّجُلِ:

- آه آه...

زادَتْهُ بَعْضَ الْماءِ، حاوَلَ فَتْحَ عَيْنٍ مُثْقَلَةٍ باحِثًا عَنِ الْحَياةِ... يَتَفَحَّصُ مِنْ بَيْنِ ثَنايا الظَّلامِ إِشْراقَ وَجْهٍ صَغيرٍ مَنْكوشِ الشَّعْرِ، يُظَلِّلُهُ وَيُبْصِرُهُ بِلَهْفَةٍ!

أَسْرَعَتْ نَحْوَ عَرَبَتِها مِنْ جَديدٍ، وَقادَتْها لِمَكانِ الرَّجُلِ. ثُمَّ صارَتْ لَهُ عُكّازًا تُساعِدُهُ شَيْئًا فَشَيْئًا عَلى التَّمَدُّدِ بِالْقُرْبِ مِنَ الْبَراميلِ...

- آآآه!...

تَأَلَّمَ الرَّجُلُ بِشِدَّةٍ. بَيْنَما صَرَخَتِ الْغالْيَةُ في آذانِ الصَّحْراءِ:

- أَرّا...

فَانْطَلَقَ الْحِمارانِ يُسْرِعَانِ أَكْثَرَ بَعْدَ اسْتِراحَةِ الطَّريقِ...

وَفي الدّارِ

- مَنْ هَذا الرَّجُلُ يا غالْيَةُ؟...
- لا أَعْرِفُ يا أُمّي، وَجَدْتُهُ في الطَّريقِ يَكادُ يَموتُ عَطَشًا.
- يا وَيْحي! ماذا فَعَلْتِ يا مَهْبولَةُ؟...

لَبِسَتْ مَسْعودَةُ الَّتي لَمْ تَدْخُلِ الْمَدْرَسَةَ يَوْمًا رِداءَها، وَانْطَلَقَتْ تَجْري لاهِثَةً نَحْوَ زَوْجِها رَحّالٌ الرّاعي... لِتُخْبِرَهُ الْخَبَرَ الْمَشْؤومَ! عادَ الْأَبُ مَفْزوعًا مُسْرِعًا.

أَخْبَرَتْهُ ابْنَتُهُ الْخَبَرَ وَقَلْبُها يَخْفِقُ. نَظَرَ لِلْغَريبِ وَلِلِباسِهِ الْبَرّاقِ، فَبَدَأَ يُهَدِّئُ زَوْجَتَهُ:

- اِهْدَإي يا مَسْعودَةُ، لا شَكَّ أَنَّهُ أَحَدُ مُتَسابِقي "الرَّالِي" تاهَ في الصَّحْراءِ... هَيّا ساعِدوني...

أَهْلُ الصَّحْراءِ كُرَماءُ! يُؤْثِرونَ ضُيوفَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ... فَرَشَ رَحّالٌ لِلرَّجُلِ فِراشًا وَثيرًا، أَطْعَمَهُ وَرَواهُ، وَعالَجَ جُروحَهُ...

لَنْ يَنْسى الضَّيْفُ أَبَدًا وَجْهَ الصَّغيرَةِ الَّتي تَأْتيهِ كُلَّ صَباحٍ بِحَليبِ الْماعِزِ الْبارِدِ، يُذَكِّرُهُ بِطَعْمِ قَطَراتٍ أَعادَتْهُ لِلْحَياةِ!

ومَعَ الْأَيّامِ؛ ازْدادَ اطِّلاعًا عَلى قيمَةِ الْماءِ عِنْدَ هَذِهِ الْأُسْرَةِ وَهَؤُلاءِ الْأَهالي الْقَلائِلُ في هَذا الْمَكانِ شِبْهِ الْمَهْجورِ مِنَ الصَّحْراءِ... وَتَأَمَّلَ تَعَبَ الْغالْيَةِ في جَلْبِ الْماءِ...

سَأَلَ الضَّيْفُ وَهُوَ يُقَلِّبُ صَفَحاتِ كِتابِها الْمَدْرسيِّ في الرِّياضِيّاتِ، يُساعِدُها:

- ماذا تُريدينَ أَنْ تَصيري مُسْتَقْبَلًا يا غالْيَةُ؟

- كُنْتُ أُريدُ أَنْ أُصْبِحَ مُخْتَرِعَةً. وَلَكِنَّ أُسْتاذي يُوَبِّخُني دائِمًا.
- لِماذا؟؟...

عَرَفَ الضَّيْفُ أَنَّ قَطْعَها مَسافَةً طَويلَةً لِجَلْبِ الْماءِ، يُؤَثِّرُ سَلْبًا عَلى وَقْتِ دِراسَتِها...

وَحينَ اسْتَعادَ بَعْضَ عافِيَتِهِ، وَاسْتَطاعَ الْمَشْيَ، طَلَبَ أَنْ يُرافِقَ غالْيَةَ لِلْمَكانِ الَّذي وَجَدَتْهُ فيهِ.

هُنالِكَ؛ مَشى مُتَلَهِّفًا يَبْحَثُ عَنْ دَرّاجَتِهِ النّارِيَّةِ، الْمُلْقاةِ بَعيدًا خَلْفَ تَلَّةٍ رَمْلِيَّةٍ... كانَتْ مَعْطوبَةً وَقَدْ سالَ مِنْها كُلُّ الْبِنْزينِ، اِنْتَشَلَ حَقيبَتَهُ الْجِلْدِيَّةَ وَهاتِفَهُ... الْحَمْدُ للهِ أَنَّ شَيْئًا لَمْ يُسْرَقْ مِنْها...

ثُمَّ واصَلَ الرَّجُلُ الطَّريقَ مَعَ غالْيَةَ إِلى مَكانِ السَّقْيِ، يَتَفَقَّدُ هاتِفَهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ...

وَبَيْنَما انْشَغَلَتْ هِيَ بِمَلْءِ الْبَراميلِ. لاحَظَ هُوَ أَنَّ صَبيبَ "النِّتْ" تَوَفَّرَ أَخيرًا، ضَغَطَ أَزْرارَ هاتِفِهِ مُشْتاقًا:

- أَلُو...

وَما هِيَ إِلّا دَقائِقُ؛ حَتّى ضَجَّ الْمَكانُ بِالسَّيّاراتِ رُباعِيَّةِ الدَّفْعِ، وَدَرّاجاتِ أَصْدِقائِهِ يُقَبِّلونَهُ وَيَحْضُنونَهُ فَرِحينَ مُنْدَهِشينَ لِنَجاتِهِ!...

عَرَّفَهُمْ بِمُخْتَرِعَةِ الْمُسْتَقْبَلِ الَّتي كانَتْ سَبَبًا في عَوْدَتِهِ لِلْحَياةِ. وَاعْتِرافًا بِالْجَميلِ؛ قَدَّمَ لَها مِحْفَظَةَ نُقودٍ بِها مالٌ كَثيرٌ، وَوَعَدَها بِزِيارَتِهِمْ مُسْتَقْبَلًا.

وَعِنْدَ عَوْدَتِها لِلدّارِ؛ سَلَّمَتِ الْغالْيَةُ الْمالَ لِأَبيها بِابْتِسامَةٍ غامِرَةٍ!

ماذا يَفْعَلُ بِالْمالِ؟

فَكَّرَ رَحّالٌ وَهُوَ في الْبَراري بَيْنَ مَعْزاتِهِ فيما جَرى مِنْ أَوَّلِ لَحْظَةٍ حَتّى اسْتَلَمَ هَذا الْمَبْلَغَ الْوافِرَ... سَوْفَ يَشْتَري بِهِ قَطيعًا مِنَ الْجِمالِ فَيَصيرَ مِنَ الْأَغْنِياءِ! أَوْ سَيَشْتَري مَنْزِلًا في الْمَدينَةِ وَيَرْحَلَ وَأَبْناءَهُ عَنْ هَذا الْبُؤْسِ، أَوْ رُبَّما اكْتَفَى بِتَرْميمِ الدّارِ وَالْإِتْيانِ لِأَبْنائِهِ بِكُلِّ ما لَذَّ وَطابَ، وَما تَبَقّى يَضَعُهُ في الْبَنْكِ!...

وَكُلَّما فَكَّرَ في شَيْءٍ يُقَهْقِهُ حَتّى تَبْدُوَ أَضْراسُهُ... ثُمَّ هَتَفَ أَخيرًا:

- الْماءُ! الْماءُ! عَلَيَّ حَفْرَ بِئْرَ ماءٍ لِقَبيلَتي.

وَبِما أَنَّ الْمالَ مَوْجودٌ؛ اِنْطَلَقَتِ الْأَشْغالُ في وَقْتٍ سَريعٍ! بَحَثَ الْمُهَنْدِسُ عَنْ أَقْرَبِ مَسافَةٍ لِلْمِياهِ

الْجَوْفِيَّةِ، وَوَضَعَ الْعُمّالُ الْمِضَخّاتِ، وَكَسَرَ صَوْتُ الْمُحَرِّكاتِ هُدوءَ الْجِبالِ الرَّمْلِيَّةِ، وَأُخْرِجَ الْماءُ الْوافِرُ الَّذي يَكْفي الْأَهالِيَ وَالْمَناطِقَ الْمُجاوِرَةَ كَذَلِكَ...

قالَتْ مَسْعودَةُ وَخالَتُها خِيرَةُ الْمُقْعَدَةُ وَهُما تَنْتَعِشانِ بِالْماءِ الْبارِدِ الْقَريبِ مِنَ الدّارِ، وَتَبْتَسِمانِ لِغالْيَةَ وتَنْظُرانِ إِلَيْها نَظْرَةَ إِعْجابٍ وَفَخْرٍ وَدَهْشَةٍ وَسَطَ تَهْليلِ جَمْعِ الْأَهالي الَّذينَ حَمَلوها عَلى الْأَكْتافِ، مُرَدِّدَتانِ مِنْ بَعيدٍ:

- شُكْرًا لَكِ يا ابْنَتي! شُكْرًا لَكِ يا ابْنَتي!...